العددان الثالث والرابع

« السنة العاشرة »

(ذى الحجة : ربيع الأول سنة ١٣٦٣ — يناير : ابريل سنة ١٩٤٤)

صحيفة دار العلوم

(١٩٣٤)

تصدرها جماعة دار العلوم

كل ثلاثة أشهر

المدير

محمد نجيب حتاتة

رئيس التحرير

محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير

بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى

المدرس بدار العلوم

مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى ——— ٢٠ قرشاً

خارج القطر ——— ٣٠ قرشاً

ثمن العدد ——— ٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٣

"إن باحثًا مدققًا لو أراد أن يعرف أين تموت
اللغة العربية وأين تحيا لوجدها تموت في كل مكان
وتحيا في دائرة العلوم"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

بسم الله الرحمن الرحيم

أثر السياسة الفارسية

فى توجيه السياسة العباسية (١)

للأستاذ محمد احمد برانق

يقول شاعر فارسى مستعرب:

وما زلنا نحج البيت قدما ونلفى بالأباطح آمنينا
وساسان بن بابك سار حتى أتى البيت العتيق يطوف دينا
فطاف به وزمزم عند بئر لإسماعيل تروى الشاربينا

فساسان وهو رأس ملوك الفرس الثانية، أو ملوك الطبقة الخامسة، كما يذكر المؤرخون، حج قبل الإسلام بقرون إلى البيت العتيق، وطاف به وزمزم عند بئر إسماعيل، كما قال شاعر جاهلى:

زمزمت الفرس على زمزم وذاك فى سالفها الأقدم

وإذا كان ساسان فعل ذلك، والشعب كان على دينه، فالشعب فعل ذلك أيضا.

إذن: كان بين الفرس والعرب اتصال قديم

والحق أننا نتجنى على العرب كل التجنى حين نقف عند ماندرس تاريخهم فى الحد الذى نعرف منه أنهم شعب عاش داخل حدود جزيرته التى أكثرها جدب ولم يخرج منها إلا قريش فى رحلتها إلى الشام حينا، وإلى اليمن حينا، وإلا مناذرة العراق وغساسنة الشام.

الحق أننا نتجنى عليهم حين نقف عند هذا الحد من دراسة تاريخهم. فإن كتب التاريخ القديمة تكاد تكون مجمعة على أن قبائل من العرب جاوزت

(١) القيت بنادى دار العلوم فى ٣٠ من يونية سنة ١٩٤٣

الفرات ، واجتازت سواد العراق ، وحاربت الفرس مرات ، بل إن قبائل من عبد القيس وغيرها ركبت إليهم البحر وغزتهم ، واستعمرت بلادهم ، وامتزجت بهم ، وجلبت الموالى منهم ، وتحكمت فيهم وكان العرب يغلبونهم على مواشيهم ومعايشهم ويكثرون الفساد فى أرضهم ، ويملكون غلتهم ، ولذلك نجد المؤرخين حينما يذكرون ملوك الطوائف الذين حكموا بلاد الفرس يقولون : من فرس وعرب .

وبعض كتب الأنساب العربية تذهب إلى أن العرب والفرس من أصل واحد. وإذا صح هذا فالدم ، والطبع ، والعادة ، والعقل — يقترب بعضها من بعض ، ويألف بعضها بعضا ، وهذا يبعث فى النفوس ميلا يدعو إلى سهولة الاندماج .

وأكثر من هذا أن العرب اليمانية يزعمون أن الضحاك أحد الملوك الفرس الأولى كان منهم ، وكانوا يفخرون بذلك فى شعرهم ، فأبو نواس يقول يفخر على المضرية :

وكان منا الضحاك يعبده الـ ـخابل (١) والطير فى مساربها

وكان فيما يزعمون ساحرا جبارا طاغية تعبده الإنس والجن . والضحاك هذا هو الذى ذكره أبو تمام فى إحدى قصائده فقال :

قد كان كالضحاك فى سطواته للعالمين وأنت أفريذون

وإذا كان اليمانية من العرب يدعون الضحاك أحد ملوك الطبقة الأولى من الفرس فإن ربيعة بكر بن وائل يدعون منوشهر رأس الطبقة الثانية من ملوك الفرس أيضا لأن قبائل منهم خرجت إلى تلك البلاد وتفرقت فيها ، وأشاعت لغتها القحطانية وحكمت . إلا أن الفرس لم يدم فيهم اضطرابهم ؛ فقد جمع أردشير (٢) ابن بابك كلمتهم ؛ ووضع لهم سياسة ملوكية ، وسياسة دينية ، ضمنت لهم ملكا دام لهم إلى أن فتح الله للمسلمين بلادهم . وظل الساسانيون على اتصال بالعرب إلا أنه اتصال ظهرت فيه قوتهم . فحافظوا على بلادهم . وبسطوا سلطانهم على بلاد العراق والحيرة من هذا يتضح أن الاتصال بين الفرس والعرب قديم . ومتصل فى أى لون من ألوانه

(١) الخابل : الجن

(٢) براء مهملة كما حققها المرحوم زكي باشا

وعلى أى حالة من حالاته : فالعرب يغزون ويملكون . والفرس من بعد ذلك يحاربون ويسيطرون ، ويهاجر العرب أفرادا وجماعات إلى بلادالفرس ، ويتصلون بملوكهم ، ويعملون فى بلاطهم ، ويستشارون فيشيرون . كما يهاجر الفرس أفرادا وجماعات إلى بلاد العرب . ويتصلون بزعمائهم ورؤساء قبائلهم . حتى إن بعضهم كانوا يرسلون أولياءعهودهم إلى بلادالعرب ليتربوا تربية خشنة . فيعيشون ويتفصحون وينظمون الشعر .

إذا صح هذا كله أو بعضه سلمنا أن العرب تأثروا بالفرس ، ولا سيما زمن بنى ساسان حيث كانت دولتهم فسيحة متباعدة الأطراف ، ممتدة من شمال العراق إلى أرمينية (١) ، ومن بحر أذربيجان (٢) إلى خراسان (فتدخل فيها الكوخ وهمذان وأذربيجان وجرجان وخراسان ونيسابور وخوارزم وبخارى وسمرقند وفرغانه وسجستان وفارس الحالية والأهواز وأصبهان وغيرها) . وحيث كان ذلك الشعب يتكلم بلسان واحد لا يختلف إلا بما نسميه اللهجات . وحيث اشتهرت ملوكها برجاحة الاحلام ، فحسنت السياسة ، وجاد التدبير ، فبعد الصيت .

هؤلاء القوم عرفنا عنهم أنهم كانوا أهل أدب وحكمة جرت على ألسنتهم الأمثال العالية والقصص الحكيمة بعضها لهم ، وبعضها أخذوه من جيرانهم الهنود . عرفنا عنهم ذلك ولقناه تلاميذنا فى المدارس . ولكن اظلمناهم ، وتجنينا عليهم حينما أغفلنا أنهم عنوا بصناعة الطب وعرفوا أحكام النجوم ، وكانت لهم أرصاد قديمة للكواكب ومذاهب فى حركاتهم المختلفة ، وكانت كتبهم عمدة أبى معشر : جعفر بن محمد البلخى فألف عليها زيجه الكبير ، واعترف لهم بالفضل .

* * *

إذن كان هناك اتصال وامتزاج وتأثر ، فلما جاء الإسلام ، وكان بعض الفرس

---

(١) بكسر أوله ويفتح ، وسكون ثانيه وكسر الميم وياء ساكنة وكسر النون وياء خفيفة مفتوحة والنسبة إليها أرمنى على غير قياس (معجم البلدان ج ١ ص ٢٠٣) .

(٢) بالفتح ثم السكون وفتح الراء وكسر الباء الموحدة وياء ساكنة وجيم . وفيها أوجه أخرى (معجم البلدان ج ١ ص ١٥٩) .

منبثين فى بلاد العرب فى صورة الموالى أو غيرهم — عرفوا الدين الجديد ، ودخل فيه بعضهم راضيا طائعا من غير إكراه بل لقد لقى نفر منهم عنتا كثيرا من كفار العرب ليصدوهم عن الدين الجديد ، وعذبوا فى الله ، فاستعذبوا أن يعذبوا فى الله وحاولوا أن يفتنوهم عن دين الله فاستمسكوا به ، واعتصموا بحبله وهان عليهم التعذيب فى سبيل الله ، وكلنا نعرف زيد بن حارثة وأسامه بن زيد وأبا عبد الله سلمان الفارسى الأصبهانى المسلم الأول ورائد العرب وداعيتهم أيام القادسية .

من هذا نعلم أن الفرس اتصلوا بالإسلام منذ فجر الإسلام وعرفهم محمد وأصحابه ودينه فى المهد فأعزوهم وقدموهم وأغزوهم وسودوهم وأمروهم فكان لهم شأن أى شأن وكان ذلك مغريا غيرهم على الاتصال بالدين الجديد الذى فتح ذراعيه لهم وحببه إليهم تعاليمه السمحة وحكمة صاحبه وحسن الأسوة فى خلفائه الذين ساروا على نهجه .

ولم يكن هؤلاء الفرس الذين كانوا منتثرين فى بلاد الحجاز ، هم الذين دخلوا الإسلام فى أول أمره فحسب، بل إن المؤرخين يذكرون أن باذان حاكم اليمن لكسرى أسلم وأسلم معه أبناء من فارس حينما قتل كسرى وتولى بعده ابنه شيرويه .

ولما كان أبو بكر أرسل خالد بن الوليد إلى بلاد الفرس مبتدئا بالعراق وأمره أن يتألف أهل فارس ومن فى ملكهم من الأمم وأن لا يتعرض لعامتهم وأن يبذل الأمان لفلاحيهم ؛ ففعل .

وهذه سياسة حكيمة رشيدة من أبى بكر ؛ فانه ما منعه من ذلك أن الفرس أثقل الوجوه على المسلمين وأكرهها إليهم ؛ كما أنه ما نقم من الفرس أن ملكهم كسرى أغلظ لنبيه محمد فى الرد على كتابه واستهان به وعجب من جرأته على مخاطبة ملك الملوك ودعوته إياه ليدخله فى دينه . ما نقم أبو بكر من الفرس أن يكون منهم هذا لنبيه ولكنه رأى أنهم شعب قوى له ماض وله حاضر فيه سياسة وحكمة وعلم له أخاء وله جوار ومن رجاله من أسلم وحسن إسلامه من غير تألف ولا إغراء . فقد يكون من بقية الشعب من يسلم ويحسن إسلامه ويكون فيه خير للأمة الإسلامية الناشئة بالرغم من أنه يعلم أن أرضهم أرض مكر وخديعة وخيانة وبالرغم من أنه

يعلم أنهم قوم تجرءوا على الشر فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه . ألا ترى أن هذه السياسة جعلت أعيان أهل الحيرة ينادون المسلمين يوم فرات بادقلى ويعلنون أنهم قبلوا مهادنتهم وصالحوهم على الجزية واستقاموا لهم فتبعهم الدهاقين . واستولوا فى بعض الوقائع على النرسيان (وهو تمر يحميه الملوك ولا يأكله أحد غيرهم أو من يكرمونه بشىء منه) . وأطعموه العامة بعد أن كان مطاعم الملوك لا يذوقه أحد غيرهم.

ثم كان ما كان بينهم وبين المسلمين من حروب ظلت زمانا ، وانتهت بفتح بلادهم جميعا ، ودخول كثير منهم فى دين الله ، وأمر العرب بالانسياح فى بلادهم ، فانساحوا فيها . إلا أن العجم بالرغم من دخولهم فى الاسلام ، وانضمام بلادهم إلى الأمبراطورية الاسلامية . كانت فى أكثرهم عصبية لجنسهم ودينهم ولغتهم ، وهذه العصبية كانوا يخفونها على الناس وإن أظهرها بعضهم لبعض خفية ، ومن وراء حجاب حتى لا يظهر العرب على ما فى نفوسهم ، فيتغيروا منهم ويتغيروا عليهم ، وقد يكون فى ذلك إيذاء لهم ، فلا عجب إذن إذا عرفت أن العجم كان يستروح بعضهم إلى بعض فى المدن التى يقيمون فيها حتى المدينة قاعدة الخلافة ومقر السلطان ولا يمنعهم من ذلك أنهم كانوا تحت عين الخليفة وأعوانه بل كان منهم من يستروح إلى أخيه الفارسى وهو فى الوقت نفسه يد من أيدى الخليفة التى تدبر شئون الملك ، وتشير على صاحب السلطان ؛ لأنهم سيجدون من الخليفة قلبا رحيما ، وصدرا رحيبا ، يتسع لهم إذا أخطأوا ، ويرشدهم بالنصح الكريم ، ويدفع عنهم إذا أوذا ، وينتقم لهم من المعتدين ، ألا ترى أن عمر رضى الله عنه قتل نتيجة لمؤامرة سياسية كونتها العصبية الحمقاء . وكان أبو لؤلؤة مخلب القط من رجال المؤامرة . فلما قتل عبيد الله بن عمر الهرمزان رأس العصبة . أداله منه عثمان . ومكن لابن الهرمزان من قتل عبيد الله وكاد يقع القتل لولا أن العفو سبق .

* * *

هذا الاتصال بين العرب والفرس صار على مر السنين اندماجا أو شبه اندماج . واختلط الدم الفارسى بالدم العربى بالتزاوج . وشاع هذا بين الخاصة والعامة . بل إن بعض الخاصة كانوا يفخرون بذلك . فيزيد بن الوليد بن عبد الملك بن

مروان أمه فارسية كسروية . وجدته لأمه رومية قيصرية . وأمها تركية خاقانية . فبعد أن كان العرب يعيرون أخاهم بأنه هجين النسب أصبحوا يفخرون بذلك . فيقول يزيد بن الوليد هذا .

أنا ابن كسرى وأبى مروان وقيصر جدى وجدى خاقان

من هذا يتضح أن العناية بصفاء الدم العربى ونقائه من الدماء الأخرى ضعفت فى العرب عامتهم وخاصتهم . وأصبح الخاصة لا يعنيهم إلا التنازع على السلطان . ومحاولة الوصول إلى الخلافة بأى طريق وبأى وسيلة . ولو كان فى ذلك إرغام العرب وإذلالهم لأنه إذا تعدد الطالبون . وتزاحم الوراد على المنهل الواحد الذى لا يسق ماؤه إلا شخصا واحدا . تطلعت الأنظار إليه وتدافع الناس من حوله . فلا يصل اليه إلا أقواهم قوة وأوسعهم حيلة . وأعظمهم وسيلة وأقربهم مأخذا . وأعمهم مسلكا وأجرؤهم . وأشدهم اندفاعا . وأبعدهم عن التزمت . وأنآهم عن التحفظ . وأدناهم من المنهل .

وهذه خلافة واحدة ذات سلطان واحد . تطلعت اليها أنظار الناس بعد أن كان السابقون الأولون فيها زهادا . فحاولها كل لنفسه . وأقام الحجج والبراهين على أنه أولى الناس بها . فيسمع له قوم وينفر منه آخرون ثم يخرجون من التقارع باللسان والتدافع بالبيان إلى تفويق السهام . وإشراع الرماح . وانتضاء السيوف . وإراقة الدماء . وإهدار النفوس . لا يرعون لله عهدا . ولا للدين حرمة . فلم تعد المسألة مسألة دين . ولا عرب ولا عجم . وإنما هو ملك يشاد على أنقاض ملك . وخلافة تقام على أشلاء خلافة : فالأمويون والطالبيون والعباسيون والزبيريون والخوارج كل فريق من هؤلاء يطلبونها لأنفسهم . ثم يختلف كل قبيل منهم على نفسه . وهكذا صارت الخلافة غاية يطمع الناس فى الوصول اليها حتى من كان لا تحدثه نفسه فى حلم ولا يقظة أنه يكون من خطابها . فقد صار من عشاقها وسلك السبيل اليها .

* * *

فلما تطلع العباسيون إلى الخلافة بدأ ذلك محمد بن على بن عبد الله بن عباس

سنة مائة من الهجرة أيام عمر بن عبد العزيز ، فنظر محمد فيما حوله ، فلم يجد إقليما أصلح له من خراسان ينشر فيه دعوته ، فبعث النقباء يدعون له سرا ، فبايعه الشيعة لأن نقباءه أفهموهم أن عبد الله بن محمد بن الحنفية أوصى له بالخلافة قبل موته ، فكثر الأتباع لكثرة الدعاة ؛ ولما مات محمد بن على كانت الدعوة من بعده لابنه إبراهيم الامام الذى اختار خادمه ومولاه أبا مسلم الخراسانى لإظهار الدعوة فى خراسان ، وادعى أنه من أهل البيت ليكون مسموع الكلمة ، والحق أنه ليس له صلة قريبة أو بعيدة بأهل البيت ، وإنما هو شاب حدث فيه شهامة وصرامة وقوة فهم ، وجودة رأى ، وحدة ذهن ، وإذا رأى المولى أن سيده يعتمد عليه فى المهم من أمره ، ويكل اليه شيئا خطيرا ؛ إذا نجح فيه ، خرج من دائرة الموالى إلى محيط الناس العاليين — إذا رأى المولى هذا عقد العزم على النجاح ، وإذا ساعدته صفات طبيعية وهبها الله له كان نجاحه فى حكم المحقق . لهذا كان ابراهيم الامام مصيبا حينما اعتمد على أبى مسلم ، ولكنه نسى أنه عربى مضرى قرشى هاشمى عباسى ، أى من صميم العرب ومن أقربهم قرابة إلى النبى . نسى هذا وقال لأبى مسلم : (انزل فى أهل اليمن وأكرمهم ، فإن بهم يتم الأمر ، واتهم ربيعة فى أمرهم ، وأما مضر فهم العدو القريب ، واقتل من شككت فيه ، وان قدرت أن لاتدع بخراسان من يتكلم العربية فافعل وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله) . تصريح خطير من ابراهيم الامام ، نفهم منه أنه لايعنيه إلا شىء واحد هو أن يلى أمر هذه الأمة بالحق أو بالباطل ، ولذلك ينفر داعيته من مضر لأنه يعرف أن بنى أمية تألفوا المضريين فهم لايجيبونه إلى دعوة ، ويحضه على أن يتألف أهل اليمن لأنهم لا يحبون الأمويين وإن كانوا هم الذين أقاموا دولتهم ولأنه يعلم أن أهل اليمن يودون لو وجدوا ملجأ يلجأون اليه ليحميهم من الأمويين ، ثم يصرح بما هو أشد من ذلك وأنكى ، وهو أنه إذا استطاع أن لايدع بخراسان رجلا واحدا يتكلم العربية فليفعل وهذا إغراء لرجل أعجمى أن يتحرش بالعرب ، ويؤذيهم ، وأن يضع السيف فى رقابهم . إذن هو ملك أيا كان ذلك الملك ، ووصول اليه من أى طريق ، وعلى أى وجه ، وليست المسألة مسألة أموى وهاشمى ، أو طالبى وعباسى ، أو شىء من هذا .

* * *

فطن العرب إلى هذا ، وبخاصة عرب خراسان الذين بدأت تظهر الدعوة بينهم ، فتعاقدت طوائف منهم على حرب أبي مسلم ومقاتلته ، ولكنهم لاقبل لهم بمقاومته ففشا أمره ، وكثر أتباعه ، وسارت دعوته سيرا حثيثا ، لأن الناس فى خراسان ضايقهم عمال بنى أمية ، ولأن الدعوة بدىء بها قبل ذلك ، وغرست بذورها منذ ثلاثين عاما ، ولأن اليمنيين كانوا منتشرين فى تلك البقاع ، ولأن بنى هشام بن عبد الملك ناوءوا مروان وعماله ، ولأن أبا مسلم كانت فيه صفات خاصة تجعله مرغوبا فيه ، مرهوبا منه ، ولأن أبا حمزة الخارجى انتقض على مروان ، ودخل المدينة وتأمر عليها ، ولأن حربا شعواء ، قامت بين نصر بن سيار والى خراسان ، وابن الكرمانى ، فشغلت نصرا عن أبى مسلم بعض الشىء ، كما أن حربا أخرى قامت بين نصر هذا وبين شيبان بن عبد العزيز الخارجى ولأن ابن الكرمانى صالح أبا مسلم واتفق معه على محاربة نصر ، وزاد جند أبى مسلم ، وعظم جيشه ، وصار له حرس ، وشرط ورسائل وديوان وعمال وقضاة وقصاص وغير ذلك مما يحتاج اليه الملك .

يبين لنا سرعة انتشار هذه الدعوة وخطرها ما أرسله نصر بن سيار حاكم خراسان إلى يزيد بن عمر بن هبيرة والى العراق لمروان بن محمد ، وقد أفزعه انتشار أمر أبى مسلم ، وهو قوله :

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه ... وقد تحققت أن لاخير فى الكذب
بأن أرض خراسان رأيت بها ... بيضا إذا أفرخت حدثت بالعجب
فراخ عامين إلا أنها كبرت ... ولم يطرن وقد سربلن بالزغب
وإن يطرن ولم يحتل لهن بها ... يلهبن نيران حرب أيما لهب

إذن صدق نصر بن سيار ، يزيد بن عمر ، بما كان من أمر أبى مسلم ، واعترف له بأن الأمر جد خطير ، وبأن بيض الفتنة أفرخ وأوشك أن يريش ، فاذا ترك حتى يريش أشعل نار حرب يعز عليهم إخمادها ، وقد كان ما توقعه نصر ، فان الفراخ راشت ، ونهضت طائرة وعز عليهم أن يهيضوا جناحها أو يحصوا ريشها ، فان أمر أبى مسلم انتشر واستفحل ، والتف العسكر عليه ، وفر نصر بن سيار ثم قتل ، وقتل شيبان الخارجي ، موادعه وحليفه ومعاونه على أبى مسلم ، ولما تم له ذلك غدر

بابن الكرمانى ، وقتل ولديه ، ثم قتله هو ، وبعث البعوث إلى الأطراف ، يقودها قحطبة بن شبيب ، وخالد بن برمك ، وأبو سلمة الخلال ، وكلهم أعاجم فكتب الله لهم جميعا النصر .

* * *

أما ابراهيم الإمام الذى يدعون له ويحملون الراية باسمه ، فانه وقع فى يد مروان بن محمد فسجنه ، حتى مات أو قتل سنة ١٣٢ . ولكنه كان أوصى بالأمر من بعده لأخيه أبى العباس السفاح

إلى أن مات ابراهيم الإمام أو قتل كان الدعاة له يظهرون أنهم إنما يعملون فى ظل دعوة عباسية إلا أن أحد النقباء الذين كان لهم يد قوية فى الدعوة أراد أن يوجهها وجهة أخرى ، ذلك هو أبو سلمة الخلال ، ولعله رأى أن أبا مسلم ظهر عليه ، فاذا استقام الأمر لبنى العباس كان هو صاحب الخطوة من دونه فرأى أن يحولها إلى مجرى جديد يكون هو صاحب اليد عليه ، فنادى بها طالبية ، ولكنه اضطرب فى أمره ، ولم يحولها إلى طالبى بذاته ، فبعث إليهم الواحد بعد الآخر يعرضها عليهم فرفضها بعضهم ، وشك فيه بعضهم ، ورضى عنهم بعضهم ولكن بعد فوات الفرصة ، فان بقية الدعاة مدوا يدهم إلى السفاح ، فلما رأى ذلك أبو سلمة انفلت من الطالبى ، وسحب منه يده ، وقدمها إلى السفاح قبل أيدى الدعاة جميعا .

هذه المخادعة والمخاتلة التى بدرت من أبى سلمة كانت وجهة السياسة الفارسية فى عصورها المختلفة .

* * *

نلاحظ هنا أن السفاح خطب فى اليوم الذى بويع له فيه على منبر الكوفة ، ولم يشد بذكر واحد من هؤلاء الدعاة الذين ناهضوا الأعداء ، وقدموا أنفسهم ليكونوا له دولة ، ثم تلاه عمه داود بن على ، ولم يفعل أيضا . وان أول عمل بدأ به حياته فى الخلافة أنه أرسل رجالا من أهل بيته إلى أكثر المحاربين من الدعاة ، يلزمونهم ويحاربون معهم ، كما أرسل عمه عبد الله بن على لمحاربة مروان ، ولم يرسل واحدا من الدعاة أو النقباء على حد تعبيرهم .

فهل كان السفاح يعتبر عمل الدعاة أمرا توجبه عليهم صلتهم بالعباسيين صلة ولاء وأنهم كانوا ينظرون اليهم نظر السيد للمسود ، أو أنه كان يشك فى إخلاصهم له ، ويرتاب فى أمرهم معه.وزاده شكا فيهم ، وارتيابا منهم ما عرفه من أمر أبى سلمة الذى أراد أن يجعلها طالبية بعد موت ابراهيم الإمام لحاجة فى نفسه ؟ . وأيا كان الأمر فانه كان يجب على السفاح أن يذكر فضل هؤلاء الناس عليه وعلى اهل بيته ، إعترافا منه بالجميل ، وتشجيعا لهم على المضى فيما هم بسبيله حتى تثبت قواعد الملك ، وإزالة لما عسى ان يكون فى نفوس بعضهم من شك فى نكران الجميل حتى لا يعود إلى ابى سلمة شيطانه ، او حتى لا يظهر شيطان آخر كشيطان ابى سلمة ، وحتى لا يجدوا فى انفسهم ، من انه بعد البيعة مباشرة ارسل إخوته ، واعمامه وبنى اعمامه إلى الأطراف للعمل بجانب الدعاة الأول الذين كانوا يعرضون انفسهم للموت من اجلهم ، وهم هادئون وادعون ينعمون بطيب العيش ، ولا يعرفون ما يجرى من حولهم .

ومع ذلك فانه ساس الأمور سياسة حكيمة حازمة ، تجعله ينتفع بهم ، ويتقى شرهم إن كان لهم شر . ومن كان فى مثل مكانه وجب عليه ان يأخذ امره بالحذر ، فانه ولى على الولايات اقاربه ، ولم يول احدا منهم غير ابى مسلم ، فقدولاه خراسان اما خالد بن برمك ، فانه عمل فى ديوان الخراج ، فلا شأن له بالولايات ، واما ابو سلمة ، فانه استوزره إلى حين .

لأن الموجدة التى وقرت فى صدره منه حين حاول أن يجعلها طالبية ، لم تزل من نفسه بل نمت ، حتى أحفظته عليه وأراد قتله بالرغم من أنه كان يأنس به ، ويحب مجالسته لطيب محاضرته ولكن من معينه على ذلك ؟ هو أبو مسلم ، قرن أبى سلمة ، وأخوه فى الجنس ، ومنافسه فى الدولة ومحاول صرف الخلافة عن أهلها ليظفر وحده بسلطانها ، لذلك لايكاد أبو مسلم يستشار فى هذا الأمر ، حتى يبعث إلى الهاشمية من يقتل أبا سلمة بليل ، فيخبط الناس فيمن قتل ، ولأى سبب قتل ، ولا يهتدون . وبذلك يريح الله الخلافة من كيد أبى سلمة ، ويريح أبا مسلم من منافسة أبى سلمة .

إلا أن أبا مسلم نسى أن النظر سيتحول إليه ، وأن التهمة ستتركز فيه ، وأنه بعد

أن كان يخشى العباسيون بأس رجلين أصبحوا يخشون بأس رجل واحد ، فكاد يهون عليهم الخطب لولا أن الرجل فى سلطان عظيم ، وحوله جند كثير ، ويتمتع بهيبة العرب والعجم ، الأولون عليه حانقون والآخرون عنه راضون ، فلا بد أن يساس وأن يصانع ، وأن يتريث له حتى تمكن منه الفرصة فتصدق الوثبة ؛ لذلك لم يتعجلها السفاح ، وسمع قول المنصور له : « لست بخليفة مادام أبو مسلم حيا حتى تقتله » ؛ فتململ وأمره أن يكتم ذلك فى نفسه حتى يهيىء الله لهم الأمر ، وظل به يصانعه ويداوره ، ويستشيره ، ولا يبرم أمراً من دونه ، فهو يشير بقتل ابن هبيرة فيقتل رغم أنف المنصور ، ويرتاب فى عمال أبى سلمة ، فيأمر بقتلهم جميعا ، فيقتلون ثم هو يقدم على الخليفة من خراسان فى ثمانية آلاف ، ولم يجر بذلك تقليد من قبل ، فيوعز الخليفة إلى الأمراء والقواد ليخرجوا لاستقباله وتلقيه من مسافات بعيدة ، ثم يكرمه ويعظمه ويحترمه حين يدخل عليه ، وينزله قريبا منه ، ويحضره الى مجلس الخلافة كل يوم ، ويتمنى أن لو كان عينه أميرا على الحج مكان أخيه أبى جعفر . فعل السفاح ذلك كله مع أبى مسلم . وفى نفسه مافيها من الموجدة عليه ، ولكن لا بد من المصانعة .

فلما خرج السفاح من دنياه سنة ١٣٦ ، وكان المنصور على الحج أقبل عليه أبو مسلم يعزيه فيبكى لوفاة أخيه ، ولكن أبا مسلم ظن أنه إنما يبكى لمصاعب الخلافة ومتاعبها وفداحة حملها وأنه يخشى أن ينوء به ، فقال له : فى زهو : اكفيكها إن شاء الله .

اطمأن المنصور بعض الاطمئنان فاعتمد على أبى مسلم فى توجيه السياسة وهو متحقد عليه ، ألا ترى أنه حرض السفاح على قتله ؟ فقال له : قد علمت بلاءه معنا ، وخدمته لنا . فقال أبو جعفر : يا أمير المؤمنين : إنما ذلك بدولتنا ، والله لو أرسلت سنورا لسمعوا لها ، وأطاعوا ، وإنك إن لم تتعش به تغد هو بك ؛ فقال السفاح : كيف السبيل إلى ذلك ؟... إلى آخر ماترويه كتب التاريخ ، وهو يدلنا على أن السفاح والمنصور كليهما ودا لو أمكنهما الخلاص ، ولكن لاسبيل لأنه هو الذى يأخذ لهما البيعة من الناس ، ويخرج لقتال عبد الله بن على ، عم المنصور ، ومدعى الخلافة لنفسه فى أهل الشام ، فيهزمه ، ويستوسق الممالك لأبى جعفر ، حتى تم له من

ذلك ماأراد . ومع ذلك فإنه بدأ يتنكر له ويتهمه فأراد أولا أن يصرفه عن خراسان ، ويوليه الشام ومصر جميعا ، فرفض ذلك أبو مسلم ، وأبى أن يترك خراسان لأنها له ، ولا بأس أن تكون معها مصر والشام ، يستخلف عليهما من يشاء ، وكتب إلى المنصور: إنه لم يبق لأمير المؤمنين عدو إلا أمكنه الله منه ، وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء ، فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء بعهدك ماوفيت ، حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث يقارنها السلامة ، فان أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها ، نقضت ما أبرمت من عهدك ، ضنا بنفسى عن مقامات الذل والاهانة .

انكشفت الحقيقة ، وظهر كل منهما لصاحبه ، وأبدى له خبيئة نفسه ، فالخليفة يريد أن يغدر إبقاء للملك ، وإن كان فى الغدر نكران للجميل . وذلك يريدان ينتقض عليه إبقاء على حياته ، وحرصا على كرامته ، وبعدا بها عن مواطن المهانة والذلة ، فلا عليه إذا نابذ وخالف .

أعمل المنصور الحيلة فى استقدامه اليه ، واستعان عليه ببعض خاصته ، كأبى أيوب وغيره فاحتالوا لذلك ، وماكروه ، وخادعوه ، حتى تأثر أبو مسلم بحيلهم ، وانخدع بأباطيلهم ، وقدم إلى المنصور حيث قتل ، لأنه قدم نفسه فى طريق الحج على المنصور ولأنه إذا كاتبه بدأ بنفسه ، ولأنه تجرأ ، فخطب عمته آمنة بنت على ، ولأنه ادعى أنه عباسى النسب ، ولأنه راغمه ، ودخل خراسان مع أنه ولاه الشام ومصر دون خراسان ، ولأنه قتل سليمان بن كثير أحد الدعاة العباسيين ، ولغير ذلك من الأسباب الكثيرة التى ذكرها له المنصور إن صدقا ، وإن كذبا .

أفلا كان يستطيع أبو مسلم أن يدفع عن نفسه ، إنه كان بمنزلة بين الناس بحيث لو سمع كلام صديقه بترك ، فقتل المنصور بمجرد دخوله عليه ، وبايع عباسيا غيره لنجح ، وأطاع الناس ، لأنه كان واضعا يده على كل شىء ، وأنفه فى كل شىء ، فأيهما يسبق إلى قتل صاحبه ، يصير له الأمر ، وقديما قالوا : إذا كان الوزير

يساوى الملك فى المال والهيبة والطاعة من الناس ، فليصرعه الملك ، فإن لم يفعل فليعلم أنه المصروع .

فما كان حدثا عاديا أن يقتل أبو مسلم ، ولكنه أمر له ما بعده ، وقدر المنصور ذلك فشرع فى تأليف أصحابه بالأعطية والولايات والرغبة والرهبة ، وجهر لبعض أصحابه بما كان يزعجه منه ، فقال : وهل كان لكم مكان أو سلطان ، أو أمر أو نهى مع أبى مسلم ؟ ومع ذلك فقد خرج فى تلك السنة ناس من الأعاجم على الخليفة وطلبوا بدمه ، إلا أن الله نصر الخليفة ، وقتل منهم ستين ألفا ، كما خرجت الراوندية وأصلهم من خراسان ، وعلى رأى أبى مسلم فخصمهم المنصور ، وأيا كان الأمر فإن قتل أبى مسلم أتعب المنصور ، وأرقه سنوات .

* * *

من هذا يتضح أنه وإن كان أبو مسلم وأبو سلمة على رأس الدعاة ، فهما اللذان أقاما هذه الدولة ، إلا أنهما لم يكن لهما أثر فى توجيه سياستها فى أى ناحية من نواحيها لأن السيف تعجل رأسيهما قبل أن يغرسا بذرة للسياسة العامة فى الدولة ، فالأول قضى عليه بعد بضعة شهور من مبايعة السفاح ، والثانى قضى عليه بعد بضع سنين من قيام الدولة ، كان فى أثنائها موضع الريبة والتهمة ، محوطا بسياج من المداراة والمصانعة ، مشغولا عن النظر فيما حوله بما خيل إليه من عز السلطان وبنشوة النصر والظفر والقدرة على تأسيس ملك عريض بعد أن كان مولى مغمورا .

وليس معنى هذا أن الأعاجم انزووا انزواء فى هذا العصر ، ولم تكن لهم إصبع فى تسيير سفينة الدولة . فقد كان لغيرهم من الذين اطمأن إليهم السفاح أولا والمنصور ثانيا — رأى : يستشارون ، فيشيرون ، ويستقضون ، فيقضون ، ويستفتون فيفتون . إلا أن هؤلاء كانوا قلة ، فلم يتضح أثرهم ، ولم يكن لهم منهج خاص سياسى ، أو غير سياسى ، وكل همهم التقرب إلى الخليفة ، وإعانته على غيره بالرأى والمشورة ، وإن خالف ذلك مصلحة إخوانهم من الفرس ، بل وإن كان فى ذلك تضحية بهم .

وإذا شئنا أن نحصى هؤلاء ، وجدناهم لايعدون خالد بن برمك ، وكان من النقباء ، وأبا أيوب المورياني ، صديق المنصور المخلص لدولته . ويظهر أن خالدا كان أحذق النقباء جميعا ، فإنه كان رابع أربعة من الأعاجم ، قتل واحد منهم فى الميدان ، ثم قتل اثنان آخران : أحدهما بيد السفاح ، والآخر بيد المنصور . أما خالد ، فإنه عاش ما عاش فى قصور الخلفاء حتى كان لابنه وأحفاده شأن اى شأن فيما بعد ، واماأبو ايوب فقد اعتبره المنصور ذا مروءة ، يشكى إليه إذا حزب الأمر على حد قولهم .

ولا بد من شكوى إلى ذى مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

وكان رأيه يعجب المنصور ، فيعمل به ، ويجنى ثمرته ، وله فى ذلك أمور وأمور ، ليس هذا موضع تفصيلها .

فلما تأسس الملك ، واطمأن المنصور على دولته ، وعرف من حوله من العرب والعجم ، انه رجل له بأس شديد ، وفيه صولة ، هابوه ، وحذروه ، وتقربوا اليه وتملقوه ، ومحضوه النصح ؛ فاطمأن اليهم ، ولكن يظهر ان العجم كانوا فى هذا الباب ابرع من العرب ، لأنهم دخلاء على الدولة ، وان كان مؤسسوها منهم ،فهم فى حاجة إلى استرضاء صاحب السلطان . والعرب هم اصحاب الدولة ، فهم اعظم من ان يتزاحموا على عتبات الخلافة تزاحم الأعاجم ، إلا ان هذا اضر بهم كثيرا،لأنه شل يدهم ، فأصبحوا غرباء عن دولتهم . ولعل الذى ساعد العجم على بسط ايديهم فى قصور الخلفاء هو انهم قوم كانت لهم حضارة قديمة ، وسياسة موروثة،يعرفونها ويحذقونها ، ويجيدون معاشرة الملوك ، والعيش فى خدمتهم ، والسير فى ركابهم - الشىء الذى جعل الخلفاء يطمئنون اليهم ، ويفتحون لهم آذانهم ، ويفضلونهم على من سواهم . لذلك قرب المنصور ابا ايوب ، وخالدا البرمكى ، والربيع بن يونس وغيرهم ، فساسوا له الدولة سياسة فارسية فى جوهرها وعرضها ، فى ظاهرها وباطنها فنظموا الدواوين على حدود فارسية ، وبنوا بغداد على وضع فارسى ، واتخذ الخليفة القصور ، وشدد فى لبس السواد ، وامر الناس بلبس قلانس فارسية سود طوال جدا ، حتى كانوا يستعينون على رفعها من داخلها بالقصب ، فقال فى ذلك ابو دلامة الشاعر :

وكنا نرجى من إمام زيادة فزاد الأمام المرتجى فى القلائس
تراها على هام الرجال كأنهـا دنان يهود جللت بالبرانس

وكان مع تأثره بهذه السياسة لا يفلت واحد منهم إذا غضب ، ولا يرحمه ، فهو يغضب على أبى أيوب كاتم سره ، وموضع شكواه ، فيأخذ كل أمواله ، ويقتله ، ويغضب على خالد بن برمك ، فيلزمه أموالا عظيمة ، ويهدر دمه إن لم يسددها ، وهكذا كانت معاملته لأعوانه من الأعاجم معاملة الملك المرتاب الذى يرضى فيسمع ويطيع ، ويغضب فيستصفى المال ، ويقتل الأصفياء ، ويسجن البرآء ، ومع ذلك فان المنصور وغيره من الخلفاء لم يعدموا أعوانا مخلصين من الأعاجم .

* * *

فها هو ذا الربيع بن يونس يأخذ البيعة للمهدى ، ويزر له ، ويصرف شئون الرعية ولكن يظهر أن المهدى كان فى نفسه شىء من الأعاجم فأراد أن يحتاط ، وكان من مظاهر ذلك أنه خرج إلى الحجاز فى حج ، فلما دخل المدينة ، انتخب خمسمائة عربى من أعيان أهلها ، ليكونوا حوله حرسا بالعراق وأنصارا ، وأجرى عليهم أرزاقا غير أعطياتهم ، وأقطعهم أقطاعا معروفة بهم ، وهذا عمل له مغزاه ومرماه إلا أن هذا لم يمنعه من أن يكون وزراؤه أبا عبيد الله معاوية الطبرانى ، ثم يعقوب بن داود ولم يمنعه أن يحجب له الربيع بن يونس وابنه الفضل . ثم يأتى الهادى ، فيقر أعوان أبيه الأعاجم على ما كانوا عليه من وزارة وحجابة وكتابة وقيادة وعمالة حتى الربيع مع أنه كان هم بتغيير ولاية العهد ، وتقديم الرشيد على أخيه الهادى ، فان الهادى لم يحنق عليه بسبب ذلك ، بل أحضره بين يديه ، وعفا عنه ، وأحسن اليه ، وأقره على حجو بيته ، وزاده الوزارة وولايات أخر . ولما مات حل مكانه ابنه الفضل ، فلما أراد أن يغير بيعة أخيه الرشيد ، ويجعلها فى ابنه جعفر ، لم يستعن على الرشيد إلا بيحيى بن خالد البرمكى ، وكان يحيى صديق الرشيد وصفيه من دون الناس ، فاذا وافق على تغيير البيعة لم يتخلف الرشيد عن رأيه ! ولكن يحيى كان مخلصا فى إسداء النصح

للهادى حيث أشار عليه أن لايغير البيعة . ومع ذلك جرت على يد الأعاجم وعلى رأسهم الخيزران أم الهادى والرشيد أمور كانت لها خطورتها ، وسابقة لم يقع مثلها من قبل ، فانهم ائتمروا بالهادى من أجل الرشيد ، فدسوا له سما فمات ، ولم يمكث فى الخلافة سوى بضعة أشهر وكانت سنه ثلاثا وعشرين سنة . وأعتقد أنه لولا الأعاجم ، ولولا يحيى البرمكى ، ولولا الخيزران وهى غير عربية لما جرؤ أحد على أن يدس للخليفة السم فى الطعام ، ولاسيما أنه كان مع حداثته ذا بأس وصرامة ، وأنه كان يقول : ما أصلح الملك بمثل تعجيل العقوبة للجانى ليقل الطمع فيه ، فلعل الأعاجم من حوله لمحوا فيه ذلك فظنوا أنه لايطيب لهم معه عيش ولا تسير لهم سياسة ، ولا يطمئن لهم قلب ، فأعانوا على قتله ، وبخاصة أنهم رأوا منه ما يريب ، فانه سجن يحيى بن خالد ، وكان عزم فى الليلة التى مات فيها على قتل يحيى والرشيد وأمه الخيزران جميعا .

* * *

فلما ولى الرشيد الخلافة جاء بيحيى هذا وهو أبوه رضاعا كما تعلمون ، وقال له : ياأبت . أنت أجلستنى هذا المجلس ببركة رأيك ، وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من عنق اليك ، فاحكم بما ترى ، واستعمل من شئت ، واعزل من رأيت ، وافرض من رأيت ، وأسقط من رأيت ، فانى غير ناظر معك فى شىء.

فاذا صح هذا ، وهو صحيح فى أكبر الظن ، كان عهد الرشيد فاصلا بين عهدين : عهد مضى كانت السيطرة فيه للخلفاء ، مستعينين بالأعاجم ، متيقظين لهم ، جامعين السلطان فى أيديهم . وعهد أتى ، ترك فيه الأمر لعجمى واحد ، يأمر وينهى ، وينقض ويبرم ، ويولى ويعزل ، ويخلع الخليفة أمر الرعية من عنقه ويضعه فى عنق يحيى ، ويفوضه إليه . فماذا فعل يحيى ؟ حاول أن يجمع الرعية : عربها وعجمها من حوله حتى لاترتفع منه شكوى ، ولا يدس عليه دساس ، وحتى لاتدبر له المؤامرات ، وحتى لايتخطاه أحد ، فيعلق أمله بالخليفة من دونه ، ولقد وضع لذلك سياسة حكيمة تعلمها من جده ساسان ، ومن أبيه كسرى أنو شروان ، فبدأ أول مابدأ بالتقرب

إلى الخيزران أم الرشيد وقاتلة ابنها الهادى ، فلا يقطع أمرا إلا بمشاورتها ، ولا يورد ولا يصدر إلا عن أمرها فكانت تشير فى الأمور كلها فتبرم وتنقض ، ويحي من ورائها السميع المطيع،وما فعل يحي ذلك لله وفى الله ، ولكنه رأى أن الخيزران تحب ابنها الرشيد أكثر من إخوته جميعا ، وأنها ضحت بابنها الهادى ، واشتركت فى دس السم له ، حتى لايخرج الأمر من يد الرشيد إلى جعفر ابن الهادى ، ورأى كذلك أنهما اشتركا فى ذلك الجرم الذى قد يغضب ناسا من العرب ؛ فكان يرى من الخير أن لايختلف معها ، فأرضاها بهذه السياسة الكسروية ، حتى يظل الجرم مستورا وحتى يظل السر الذى بينهما مدفونا ، فلا يظهر عليه أحد . وكان له من وراء ذلك سياسة أخرى ، أعجب من هذه وأدهى ؛ فقد عمل هو وابناه الفضل وجعفر على إرضاء الناس جميعا ، لافرق بين عربى وعجمى ، فساسوهم سياسة واحدة ، ترغم الجميع على حبهم والتعلق بهم ، وتجعلهم يعمون عن أى سيئة تقع منهم ، ولو وقعت على رأس الخليفة نفسه ؛ فجلسوا للناس فى كل يوم جلوسا عاما ينظرون فى حوائجهم ، لايحجبون أحدا ، ولا يسترون عن أحد ، وأغدقوا على الحرمين أقطا وسمنا وقحا وتمرا ، وأجروا على المهاجرين والأنصار ، وعلى وجوه أهل الأمصار ، وعلى رجال الدين ، وعشاق الأدب ، وذوى المروءات ، وأنشئوا الكتاتيب ، يتعلم فيها اليتامى بالمجان ، وتوسطوا عند الرشيد للمغضوب عليهم ، أو لأكثرهم ، وتلطفوا له حتى عفا عنهم ، وأرخت الكتب باسم يحي ، ولقب بالأمير ، وكان أول من منح أو منح نفسه هذا اللقب من وزراء المسلمين . ولا أحب أن أطيل فى أنه كان من الأسلحة الحادة التى عنى بها فى تثبيت سلطانه ، وتدعيم حكمه — ألسنة الشعراء ، فإن من المعروف المشهور أنه نفحهم بدر المال ، فأطلق ألسنتهم فيه وفى أولاده بالمدح ، وشغلهم عن مدح غيرهم حتى الخليفة نفسه أو كاد ؛ ومدائح الشعراء فيهم ملأت كتب التاريخ والأدب التى تتحدث عن ذلك العصر . وكان يوصى أولاده دائما أن يتخذوا لهم منا فى أعناق الرجال ، وينصح لهم أن يسترضوا الاشراف دائما ، ويستعينوا بهم ، لأن النعمة عليهم أبقى ، وهى بهم أليق وأحسن ، والمعروف عندهم أشهر ،

والشكر منهم أكثر . وإذا كان فطن إلى مسائل السياسة مع الناس عامتهم وخاصتهم فإنه لم يغته أن يحسن السياسة أيضا مع أهل بيته حتى مع خدمه ؛ ألا ترى أنه رآهم يوما يعبثون ويترامون بالبطيخ ، فطاشت رمية بطيخة من يد خادم ، فأصابت وجهه ، فما ثار ، بل ماغضب ، بل ماتحرك ؛ فعجب من حوله منه وله ، وودوا لو نهاهم وزجرهم حتى يخافوه ، فلا يجترئون على مثل هذا . فلم يزد على أن قال : اللهم غفرا ، نحن نحب أن نؤمن من بعد عنا ، فكيف نخيف من كان على بساطنا .

بهذه السياسة الحكيمة ملكوا قلوب الناس ، وتمكنوا من قلب الرشيد تمكنا جعله ينسى مكانه منهم ، ومكانهم منه ؛ فهو يقلد جعفرا المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية ويقلد الفضل المشرق كله من النهروان إلى أقصى بلاد الترك إذ ذاك ؛ فأما جعفر فهو يقيم مع الرشيد فى دار الخلافة ، ويولى عنه عمالا ، وأما الفضل ، فيودعه الرشيد ويسير معه مسافة طويلة ، ناسيا مقام الملك منه ، فاذا عاد إلى العراق لأمر من الأمور يخرج الرشيد لتلقيه كما تتلقى الرعية ملكها ، ويجمع له الناس لاستقباله ، ويأمر الشعراء بمدحه ، والخطباء بذكر فضله ، فيطلق لهم الفضل العطايا ويمنحهم بدر المال .

ولست أدرى : أكان ذلك عن حب مكين فى قلب الرشيد للفضل ، أم أنه عرف مكانته ومكانة أبيه وأخيه من قلوب الناس ، فأراد مداورتهم ومصانعتهم ، حتى يأخذوا البيعة فى الأطراف لولديه الأمين فالمأمون . ولعل الأمر كان فى أوله حبا مكينا ، جعله يلقى إليهم القيادة ويسلم لهم الزمام ، فاستحملوه كأحسن ما يكون لأنفسهم أولا وللأمة ثانيا . فلما عرف تمكنهم من قلوب الرعية جعلهم يأخذون لولديه البيعة ، ففعلوا ولم يتردد فى المبايعة أحد ؛ لأن يحيى وأولاده أرادوا ، فكان لهم ما أرادوا .

وما كان ليحيى وأولاده ما يريدونه من الشعب فحسب ، بل كان لهم ما يريدون من الخليفة ، وإن لم يرد الخليفة ؛ وكانوا يعدون وينجزون على لسان الخليفة من غير أن يكون للخليفة علم بما يفعلون ، ولا يسعه إلا أن يوافقهم على ما يصنعون .

فهذا عبد الملك بن صالح من بيت الخلافة ، يذهب إلى جعفر بن يحيى ، ويقول له : إن فى قلب أمير المؤمنين هنة ، فاسأله الرضا ، فيجيبه جعفر ، قد رضى عنك أمير المؤمنين ، فكأن جعفرا ملك قلب أمير المؤمنين ، فيقول له:ارض فيرضى.ويقول له : اسخط فيسخط . ثم قال عبد الملك : على أربعة آلاف درهم تقضى عنى، فيجيبه جعفر : إنها عندى حاضرة ، ولكن أجعلها من مال أمير المؤمنين . ولأن يملك جيبه أهون من أن يملك قلبه . ثم قال عبد الملك : وإبراهيم ابنى أحب أن أشد ظهره بصهر من أولاد الخلافة ؛ فيجيب جعفر : قد زوجه أمير المؤمنين العالية ، وهذه أشد من الأولى ، والثانية ؛ لأنه يستطيع أن يدعى عليه أن أمير المؤمنين رضى عنه ويستطيع أن يقدم له الدراهم من ماله ، ويوهمه أنها من مال أمير المؤمنين . أما أنه يقطع برأى فى زواج بنت أمير المؤمنين ، وأمير المؤمنين لا يعلم ، فهذا شىء وراءه ما وراءه . ثم قال عبد الملك : وأحب أن يخفق لواء على رأسه فأجاب جعفر قد ولاه أمير المؤمنين مصر ؛ وهذه أخف من سابقتها ؛ لأنه هو الذى يولى ويعزل من غير أن يتدخل أمير المؤمنين .

قد يسبق إلى الظن أن هذه المسائل الأربعة التى طلبها عبد الملك بن صالح من جعفر ، تحدث فيها جعفر قبل ذلك مع الرشيد ، واتفق عليها ، ولكن لا . لم يجر تحدث بشأنها بين جعفر والرشيد قبل الذى جرى بين جعفر وعبد الملك ، فقد كان الحديث فى بيت جعفر ، وأمام بعض أصدقائه الذين أدهشهم أن يقول جعفر ما قال من غير أن يستأذن الخليفة ، وقالوا متهامسين : لعله أن يجاب إلى ما يطلب من الحوائج ، فكيف بالتزويج ، فلما كان الغد ، دخل جعفر على الرشيد وجلساؤه بالأمس واقفون بالباب ينظرون ما يصنع ، فلم يلبث أن دعى بأبى يوسف القاضى ومحمد بن حسن ، وابراهيم بن عبد الملك ، ثم خرج إبراهيم وقد خلع عليه وزوج وحملت البدر إلى منزل أبيه وولى مصر .

* * *

تمكن هؤلاء القوم من السلطان ، وصاحب السلطان إلى هذا الحد ، فصيروها

خلافة عربية فى مظهرها ، فارسية فى حقيقتها ومخبرها ، واتبعوا السياسة التى أشرنا إليها من قبل فأحبهم الناس ، ورضوا عنهم ، والتفوا حولهم ، وشرق ذكرهم وغرب وملأ الآفاق . وضؤل بجانبه اسم الخليفة ، فوجد عليهم فى نفسه ، ولكنه كتمها سنين ، وكان بعض المقربين إليه ، وبخاصة العرب منهم ، يعز عليهم أن تصير الدولة برمكية كما يرون ، فيدسون لهم من بعيد ، فبدأ الرشيد يتنبه لنفسه ، وينظر فيما حوله فيجد لهم ولولدهم ضياعا ليس له ولا لولده مثلها ، ويجد الناس على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وأقطارهم ومذاهبهم ، يقصدونهم ولا يطرقون باب الخليفة ، ويجد الشعراء والعلماء يذهبون إلى مجالسهم أكثر مما يذهبون إلى مجلس الخليفة ، فتهيج فى نفسه نزعة دينية عربية ، فيرى مجالا للطعن عليه ، فهم فى مظهرهم شيعة ، وفى باطنهم كما قال الشاعر :

إذا ذكر الشرك فى مجلس أضاءت وجوه بنى برمك
ولو تليت بينهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك

ثم هم يدخلون عليه غير مستأذنين ، ويجلسون فى مجالسه غير محتشمين ، وأشد من ذلك أنهم تدخلوا فى أخص مسائله ، التى تمس شخصه ، بل حاولوا أن يحدوا من إنفاقه ، فهم يبيحون لأنفسهم أن يبعثروا ، وأن يغدقوا على من يستحق ، ومن لا يستحق ؛ أما هو فانهم يقررون له مقدارا من المال لنفقاته ونفقات عياله ، ومقدارا آخر للحوادث التى تطرأ عليه فليس له أن يتجاوز أى المقدارين ، ولا أن يخلط بينهما ، ومن يدرى لعلهم كانوا يحدثون أنفسهم أن يطالبوه بقوائم يقدمها لهم ، مبينا فيها الوجوه التى أنفق فيها المال . ألا ترى أنه يطرأ عليه ظرف خاص يحتاج فيه إلى المال ، فيرسل إلى جعفر بقوله له : ياأخى ، ويطلب منه عشرة آلاف درهم فيرد عليه ، وأين المال ؟ خمسة آلاف تكفى ، فيأخذها الرشيد ، وإن لم يأخذ فلا خمسة ولا ما دون الخمسة ؛ ولولا عطف بعض أصدقاء الخليفة على الخليفة لما وجد المال الذى ينفقه فى اليوم الذى انقبض فيه المال عنه .

كل هذه الأشياء وغيرها تزاحمت فى صدر الرشيد ، فأوغرته ، وأنضجت قلبه

غيظا فغضب لنفسه بعد أن حزن عليها ، وقرر أنه إما خلافة لها جلالها ووقارها وحكمها ، وإما أن لا خلافة ؛ فكانت خلافة ، لأنه هب ووثب فقتل وسجن واستصفى المال ، وأخرس الألسن ، وأرهب الأولياء والأعداد ، فصار البرامكة :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

فغضب الناس لهم مديدة ، ثم أطلق كثير منهم ألسنتهم فيهم هاجين ، وكانوا أطلقوها من قبل مادحين . فعل الناس ذلك :

غير ما طالبين ذحلا ولكن مال دهر على أناس فمالوا

خلص الرشيد بذلك من البرامكة ، فكان عليه أن يجعلها عربية ، ولا نستطيع أن نقول إن العرب كانوا جهلة بشئون الحكم ، وقواعده ونظمه ، فقد سارت دولتهم على خير ما تكون دولة زمن أبي بكر وعمر ، وصدر خلافة عثمان ، وكانت عربية خالصة . وسارت الدولة زمن بني أمية بالرغم مما كان يحيط بهم من زعازع وأعاصير ، ولم يستعينوا فيها بأعاجم يطغون عليهم ، ولكنهم كانوا خدما ، أو موالى ، أو كتابا فى الحين القليل ، وكانوا قلة ، فلو أن الرشيد رأى أن يعيدها عربية صميمة ، لما عز عليه ذلك ، ولكنه أخرجها من عجم إلى عجم ، فنقل الزمام من يد البرامكة إلى يد الفضل بن الربيع الذى علمه الحذر رأس الديك الذى فى فم الثعلب ، فظل فى موضعه هذا من الدولة ، ملتزما حده ، عارفا مكانه من الخليفة ، ومكان الخلية منه إلى أن مات الرشيد ، وإلى أن قتل الأمين أيضا ، وقد لعب هذا الوزير فى الفتنة التى كانت قائمة بين الأمين والمأمون دورا خطيرا ليس هذا موضع الخوض فيه ، والحق أن الفتنة التى قامت بعد موت الرشيد كان ظاهرها بين الأمين والمأمون ، وباطنها بين الفضل بن الربيع والفضل بن سهل ؛ كل منهما يعمل على نصرة صاحبه أو على نصرة سياسته ، وكان منهجهما سياسة فارسية برمكية مشوبة بشيء من التصون والتيقظ ، لم يعتمدوا فيها إلا على الأعاجم اخوانهم ، فالذين ناصروا الامين أعاجم والذين ناصروا المأمون أعاجم ، والذين قتلوا الامين أعاجم ، ولو أنهم كانوا عربا لما قست قلوبهم ، وتحجرت ؛ فانهم دخلوا عليه ، وهو يلتف فى ثيابه

وقلبه يخفق حتى ليكاد يخرج من صدره ، فضربه أحدهم سيفا فرفع صوته وقال : أنا ابن عم رسول الله ، أنا ابن هرون ، أنا أخو المأمون . الله الله فى دمى : فلم يلتفتوا الى شىء من ذلك وتكاثروا عليه ، وذبحوه من قفاه ، وهو مكبوب على وجهه ، ولو أنهم كانوا عربا للانت له قلوبهم ، واكتفوا بحمله الى أخيه ليرى رأيه فيه . وان ذا الرياستين الفضل بن سهل ، أراد أن يثير حنق المأمون على طاهر بن الحسين ، فقال للمأمون ، وقد دخل عليه طاهر برأس أخيه : أمرنا أن يأتى به أسيرا ، فأرسل به الينا عقيرا .

وظل الفضل بن سهل مستوليا على المأمون ، وحجز عنه الناس عامة والعرب خاصة كما حجزه عن الناس بمرو ، فغضب لذلك العرب وثاروا ، وصاروا يحتالون على الاتصال بالمأمون حتى أفهموه أن العرب يسيئهم أن يسلم نفسه للفضل ، وأن يبقى فى مرو بعيدا عن بغداد فرحل اليها على غير رغبة الفضل الذى تمكن العرب من قتله تخلصا منه كما مات على الرضا الذى بايع له المأمون تنفيذا لاشارة الفضل فخلص المأمون للعرب أو كاد ، وهدأت الثائرة ، لأن الحسن بن سهل لم تكن له ضلع فى قوة ضلع أخيه

وأكبر الظن أن هؤلاء الناس الذين تتابعوا على تولى الأمر للخلافة لم يكن يهمهم إلا أن يجمعوا السلطان فى أيديهم ، لما لذلك من لذة نفسية ، فكانوا يحاولون أن يصلوا إلى ذلك بأى ثمن ، فاذا وصلوا اليه حاولوا أن يحتفظوا به أيا كانت السبيل التى توصلهم إلى ذلك الاحتفاظ ، وهى تختلف باختلاف الأحوال التى تحيط بكل منهم ولذلك تراهم يكيد بعضهم لبعض ، ويعمل كل منهم على الوقيعة بأخيه ، ويغضون من شأن العرب ، إلا إذا كان لجوءهم إلى الدين يدفع عنهم شرا أو يخرس عدوا ، ولذلك كثرت الزنادقة فى عهودهم المتتابعة ، وكان من الزنادقة من يخفى زندقته حتى يصل إلى منصب كبير فى الدولة ، وحسبنا من ذلك ما نعرفه من الأفشين ، أحد قواد المعتصم الذين كان لهم بلاء فى محاربة الزنادقة ، كان هو زنديقا أيضا . فجىء به لمحاكمته فى مجلس الخليفة ، وثبت عليه أنه ضرب رجلين إماما ومؤذنا ، كل واحد ألف سوط

لأنهما هدما بين أصنام واتخذاه مسجدا . وأن الأعاجم كانت تكتب اليه فى كتبها: إلى إله الآلهة من عبيده ، فيقرهم على ما يكتبون ، وأنه كتب إلى أحد العمال الأعاجم يطلب منه الخروج عن الطاعة ، لأنه يشعر بضيق حتى ينصر دين المجوس على دين العرب ، وأنه يستطيب المنخنقة والمذبوحة، وانه كان فى كل يوم أربعاء يستدعى بشاة سوداء ، فيضربها بالسيف نصفين ، ويمشى بينهما ثم يأكلها ، إلى غير ذلك من الأمور التى كان يفعلها الأفشين الذى كان المعتصم يعقد له ، ويؤمره على الجيوش ، ويخرج لقتال بابك الخرمى الزنديق ، فيقتل كثيرا من أتباعه ، ويهزمه ولكنه لا يقتله هو مع أن سيفه تمكن مرات من عنقه .

فلما تحقق المعتصم أن الأفشين كان على هذا سجنه وأذله واحتاط على أمواله وخزائنه فوجد فيها أصناما مكللة بالذهب والجوهر وكتبا فى فضل دين المجوس ، وأشياء أخرى تدل على زندقته وكفره ، فأمر به فصلب ، ثم أحرق وذرى رماده فى دجلة .

هذا الأفشين صورة من صور كثيرة تعددت زمن سيطرة العجم على أصحاب السلطان العباسيين على نحو مما قدمنا ، وكانوا كلما انقضت منهم دولة قامت دولة وكانوا جميعا لا يهتمون بالمسائل التى تخص العرب لغتهم أو دينهم أو جنسهم أو قوميتهم إلا بالقدر الذى يجعلونه ذرا للرماد فى العيون لذلك تفشت الزندقة ، وقويت الشعوبية وضعفت النعرة العربية ، وحاول القوم أن يعيدوا دولتهم كما كانت قبل أن يهدمها الاسلام . اسمع ما كتبه أخو الافشين يوما إلى أخى المرزبان أحد ملوك الصغد للمعتصم (إنه لن ينصر هذا الدين غيرى وغيرك وغير بابك الخرمى، فأما بابك فقد قتل نفسه بحمقه ، ولقد جهدت أن أمنعه ، فأبى إلا حتفه ، وأنت إن خالفت لم يرمك القوم بغيرى ، ومعى أهل النجدة ، وإن توجهت اليك لم يبق أحد يحاربنا إلا العرب والمغاربة والترك ، والعربى كلب تناوله لقمة وتضرب رأسه ، والمغاربة أكلة رأس والأتراك لهم صدمة ، ثم تحول الخيل جولة ، فتأتى عليهم . ويعود هذا الدين إلى ما كان عليه أيام العجم) .

فكان لابد من إقامة سد فى وجه ذلك التيار حتى لايجرف البقية الباقية منهم فيقضى على السلطان الذى بقى اسمه فى الخلفاء وينقله اليهم .

فكر فى ذلك المعتصم فرأى وجوب تغيير هذا الاتجاه السياسى الذى أوشك أن يجتاح خطره العرب ، ولكنه سلك سبيلا لعل غيرها كان أجدى عليه، فانه خرج من شر إلى شر . وفك العقال من رجله ليضعه غلافى عنقه ؛ فجاء من الاتراك بنحو من عشرين ألفا ؛ وجعلهم فى خدمته ، وملكهم من آلات الحرب والدواب مالم يتفق لغيره فناوأ الفرس والأتراك بعضهم بعضا ؛ وكان كل منهما شق رحى وطحن العرب بين الشقين .

وبعد فهل أخطأ الخلفاء فى سياستهم ؟ وهل أخطأ أمراء العرب فى موقفهم من الخلفاء ومن الفرس ومن سياسة الدولة عامة ؟ وهل كان للفرس حق فى انتهاج هذه الخطة التى ساسوا بها العرب ؟ وهل نجحوا فى هذه السياسة فانتقموا من العرب الذين قضوا على دولتهم دينيا ولغويا ؟

كل هذه أسئلة ترد على الخاطر حين درس السياسة فى هذا العصر ، ويؤلمنا أن نجيب عنها فى صراحة الباحث غير المتعصب للغة ولا جنس ولا دين .

يؤلمنا أن نقول إن الخلفاء أخطئوا فى أنهم أسلموا الفرس زمامهم ولم يقيموا من أنفسهم حراسا عليهم يراقبون تنفيذ سياستهم لذلك كان هؤلاء ينسون أنفسهم وحقيقتهم ومكانتهم فى الدولة فيطغون . ويرخون لسياستهم العنان حتى إذا انتبه الخلفاء من غفوتهم وجدوا أن الأمور تكاد تنقض عليهم فيغضبون ويثورون ويخيفون من أمنوهم ويقتلون ويحبسون ويصادرون الأموال وغير ذلك من الاعمال التى يثبتون بها ملكهم وقد أوشك أن تعصف زعازع السياسة الحمقاء فى نظرهم لذلك نجد مؤرخى الفرنجة الذين يشتغلون بتاريخ العرب يقررون أن خلفاء المسلمين فى هذا العهد والذى قبله يتبعون سياسة مكيافلى قبل أن يخلق مكيافلى أى أنهم ساروا عليها عمليا قبل أن يضعها صاحبها نظريا ، وسياسة مكيافلى هى التى ضمنها كتابه «الأمير» الذى كان له عظيم الأثر فى السياسة الأوربية فى القرن السادس عشر . فإن مؤلفه

ضمنه مبادىء سياسية عامة إذا سار عليها الملوك والأمراء توطدت دعائم ملكهم فى زعمه ولعل قول مكيافلى : (إن الأمير الذى يريد حفظ كيان دولته لابد له فى كثير من الأحيان أن يخالف الذمة والمروءة والإنسانية والدين) هو الذى سبب طغيان الفرد فى القرن السادس عشر ثم نشأ من هذا الطغيان ثورات تولدت عنها الديمقراطيات القائمة لعل من الحق أن نقول : إن بعض خلفاء المسلمين كانوا يلجئون أحيانا إلى أطراف من هذه السياسة لا إلى هذه السياسة كلها ، والذى كان يضطرهم إلى هذا طغيان وزرائهم طغيانا يكاد يقضى على سلطانهم وإن كان عليهم بعض الوزر فى تركهم الوزراء غير مراقبين . ولهذا ترى الاستاذ ميور المستشرق بعد أن يفيض فى مدح الرشيد يقول : لولا شائبة من القساوة المنطوية على الغدر والذى وصمت سيرته .

وأما أمراء العرب فإنهم أخطأوا فى بعدهم عن خلفائهم وتركهم فى يد ناس من غير جنسهم وكان عليهم أن يشاركوا فى الحكم فلا يستقلون به من دون الفرس ولا ينأون عنه فيستبد به غيرهم .

وأما الفرس أنفسهم فإنهم لولا مبالغتهم فى جمع السلطان فى أيديهم ولولا استبدادهم بكل شىء حتى بالخلفاء أحيانا ، ولولا تعصبهم الذى كان يظهر كثيرا لجنسهم ولغتهم وحضارتهم ، لولا هذا كله لكان لهم فى السياسة الإسلامية أثر خير مما تركوا ، فإن هذه الأمور اضطرت الخلفاء إلى أنهم يستبدون بهم ويهدمون ما يبنون .

وهذه السياسة هيأت فرصة لأقوام آخرين ليسوا عربا ولا فرسا فلعبوا فى السياسة الاسلامية دورا زادها ضعفا على ضعف وانتهى الأمر بالسياسة الاسلامية إلى أنها لم تصطبغ بلون خاص فهى بعد أن انسلخت من الديمقراطية الاسلامية الأولى لم يكد يستقر عليها الثوب الفارسى حتى بدا مهلهلا مزقت حق الساسة وتردد الخلفاء بين اللين الذى يكاد يكون ضعفا والقسوة التى تكاد تكون وحشية . لهذا انكمشت سياسة الفرس بعد ذلك وبدأ ظلها يتقلص من البلاد الاسلامية وينحسر إلى منبعه الأول حتى أعادوا دولتهم

الفارسية الكسروية متأثرة هى بلغة العرب ودينهم وسياستهم أكثر مما أثرت هى فيهم إذا استثنينا كبار العلماء والأدباء الذين ظهروا منهم فى العصور الأولى والوسطى من التاريخ الاسلامى .

ولو أنهم كانوا مخلصين فى سياستهم لتوجهت السياسة العربية متأثرة بهم ، ولما وجد غيرهم من الدخلاء منفذا ينفذون منه ليسيطروا على الخلفاء ، فتعددت الأجناس ، واصطدمت الرغبات وهوت الخلافة هويا لم تنهض منه بعد .

وإنه لما يحز فى النفس أن الدول الاسلامية ظلت على تباعد وتنافس وأنانية وتطاحن إلى وقت قريب ، وكم نتمنى على الله أن يوحد بين هذه الدول تحت لواء الوحدة الاسلامية ، وأن يهيىء لها جوا سياسيا إسلاميا سعيدا يأخذ بيدها ويحقق لها مكانة تتفق مع ماضيها المجيد .

محمد احمد برانق